اللفافات النحاسية بين مخطوطات البحر الميت

ربما كان من أطرف وأهم مخطوطات البحر الميت لفافتان من النحاس الأحمر تمثلان فى حقيقة الأمر عملاً واحدًا يتحدث عن كنوز مخبوءة تبلغ نحو ستة آلاف قطعة ذهبية وفضية (٢٠٠٠كيلو جرام = ٢ طن). وقد تم اكتشاف هذه اللفافات النحاسية فى ١٤ من مارس ١٩٥٢ فى الكهف الذى حدد فيما بعد بالكهف رقم ٣ وكانت اللفافات فى حالة متردية من التأكسد، وكان سقف الكهف قد أنهار منذ العصور القديمة.

وكانت اللفافتان أصلا وهما من النحاس الأحمر قطعة واحدة أو بمعنى أدق رقيقة واحدة (٨ أقدام طولاً و١١ بوصةم عرضًا أى ٢٤٠سم × $\frac{1}{2}$ ٢٧سم) وتتكون من ثلاث شرائح من النحاس الأحمر الرقيق كل منها ١٢ × ٣٠ بوصة مرتوقة من الحواف، وقد أعدت هذه اللفافة كما لوكانت لفافة من الجلد العادى ولكنها رتقت بدلا من التخبيط أى برشمت أو لحمت. وقد حفرت الكتابة على الرقيقة بآلة حادة ربما بقلم من حديد بسن قطره $\frac{1}{8}$ من البوصة. ومع مرور القرون صدئت الرقيقة المطوية واستعصت على الفض من الحواف، وفشلت كل المحاولات التى جرت بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ لفض وقراءة نص هذه الرقيقة.

وقد غلفت هذه اللفافات بشمع البرافين حتى لا تسوء حالتها أكثر وحملت إلى متحف فلسطين الأثرى حيث استقرت هناك لمدة ثلاث سنوات وفى تلك الفترة أجريت عدة تجارب لمحاولة فض اللفافات دون إصابة النص بأذى. وفى سنة ١٩٥٥ أخذت تلك اللفافات إلى كلية مانشيستر للتكنولوجيا فى إنجلترا حيث توفر البروفيسور رايت – بيكر أستاذ الميكانيكا على تصميم وصنع آلة قطع (منشار) لقطع اللفافات إلى شرائح.

ولقد تضمنت عملية التقطيع ثلاث خطوات: أولها. تنظيف مركز اللفافة أى داخلها تمامًا من الأتربة التى دخلت إليها وذلك عن طريق مغزل مستدق دخل من فتحة اللفافة بطريقة حلزونية دوارة وثانيها تحميل هذه اللفافات على مغزل دوار حتى يتم كل شيء آليًا دون استخدام يدوى. وثالثها. تمت تغطية اللفافات بمحلول كيماوى لتقوية الجسم المعدنى للرقيقة النحاسية حتى لا يتفتت.

ولقد تمت عملية التقطيع بآلة تقطيع (منشار) ذات ماسة قاطعة سمكها ستة على الألف من البوصة حيث قطعت اللفافات إلى شرائح بالحد الأدنى من إصابة الحروف.

وبعد فض اللفافات بهذه الطريقة وفردها وتيسير إمكانية القراءة اتضح أن محتوياتها فى الأصل كانت تقع فى ثلاثة آلاف حرف ولكن خلال عملية التقطيع فقدت اللفافات ١٥٠ حرفًا وكانت بقية الحروف واضحة وسهلة القراءة، وكانت الكتابة موزعة على ١٢ عمودًا. وكانت الكنوز المذكورة فى تلك الوثيقة تتضمن ذهبًا وفضة فى سبائك وعملات وأوانى مقدسة. واللغة التى كتبت بها اللفافات هى عبرية المشناة (ما بعد عبرية الكتاب المقدس).

هذه اللفافات تذكر نحو ستين مكانا خبئت فيها الكنوز التى تبلغ طنين من الذهب والفضة. وهذه المواقع تغطى أرض فلسطين بأكملها ولكن الغالبية منها تتمركز حول مدينة القدس، وهى جميعًا مذكورة. وكانت هذه الكنوز مخبوءة فى آبار ومقابر بالقرب من أشياء بارزة تصلح كعلامات تدل عليها مثل الأشجار الباسقات والينابيع الشهيرة. وكانت أوصاف الأماكن خبيئة الكنوز تتبع نمطًا محددًا:

١- يذكر اسم المكان فى فلسطين.

٢- تعطى تفاصيل وصفية لجغرافية وطبوغرافية المكان.

٣- مدى عمق الخبيئة من سطح الأرض بالذراع.

٤- تفاصيل الكنز نفسه من حيث العدد والنوع.

وتبدو مقادير الكنوز المذكورة فى اللفافات النحاسية هذه خيالية؛ ذلك أن مجموع المعادن الثمينة المذكورة على نحو ما يشى به النص هو على النحو الآتى:

- الذهب ١٢٨٠ تالنت.
- سبائك الذهب ٦٥ بلوس.
- أباريق الفضة: ٦٠٨ أباريق مليئة بالقطع الفضية.
- أوانى الذهب والفضة ٦١٩ (الأوانى نفسها مصنوعة من الذهب والفضة).

وهل كانت تلك الكميات زيادة عن اللزوم فإن ذلك يعتمد على وزن التالنت فى تلك الفترة. ونحن لا نعرف حقيقة قيمة التالنت وكسوره فى القرن الأول الميلادى لدى اليهود. ويرى البعض أننا يمكن أن نقترب من القيمة الحقيقية إذا قارناه بعملة الفترة التالية (ألمانش: وباليونانية مينا) وهى سدس التالنت ثم نقارن المانش بالشيكل وهو خمس المانش. وثمة طريق آخر لمعرفة قيمة هذه الكنوز إذا عرفنا أن الـ (سيلا) الجليلية هى نصف قيمة هذه العملة. كذلك إذا قدرنا الدولار العملة الإنجليزية القديمة بخمسة شلنات واعتبرناه ندا للجنيه. ونزلنا بالجنيه إلى الشلن وبالشلن إلى البنس على نحو ما يفعل التجار فى الأسواق والعامة أيضًا على سبيل المثال فى مصر: الشلن خمسة جنيهات، البريزة عشرة جنيهات على سبيل التمويه، إذا فعلنا ذلك يمكن أن نصل إلى تقدير حقيقة الكنوز المذكورة فى اللفافات. ومهما يكن من أمر فإنه دون أن ندور فى متاهات المقارنات والعمليات الحسابية فقد خلص الخبراء إلى أن تلك الكنوز المبخوءة تدور قيمتها بالعملات المعمول بها فى يومنا حول (مليون دولار أمريكى).

وبقدر عظمة الكنز كانت عظمة الطريقة التى خبيء بها وحيث كان الجزء الأكبر منها عبارة عن عشور تدفع للمعبد وكهنته تجمع من الشعب. وهذه العشور المقدسة لا يجب أن يستخدمها إلا كهنة المعبد؛ وأن تستخدم تلك العشور أو أوانى العشور فى غير الأغراض الدينية تلك خطيئة كبرى لا تغتفر.

وربما من هذا المنطلق يرى بعض الباحثين أن الغرض من اللفافات النحاسية هى أن تكون سجلا لمثل هذه الودائع المقدسة: العشور وأوانى العشور والذهب والفضة والأوانى الثمينة التى تم تكريسها فى خدمة الله أى سبيل الله. كذلك فإنه قد قصد بهذه اللفافات (وربما نسخ أخرى منها) أن تكون إعلاما للناجين من الحرب التى كانت مستعرة آنذاك وبالمواضع التى دفنت فيها المواد المقدسة وأنها حيثما اكتشفت لا تستخدم إلا للأغراض الدينية، ومن الطبيعى أن يكون من بين أغراض اللفافات أن تكون دليلاً لاستعادة هذه الكنوز إذا دعت الضرورة لاستئناف الحرب.

ولقد اجتهد بعض الباحثين فى استنباط الأسباب التى دعت إلى استخدام مادة ثمينة مثل النحاس الأحمر وبذل مجهود غير عادى فى كتابة هذه الوثائق فقالوا لأن الرقائق النحاسية بالضرورة تعيش أطول من الرقوق والبردى ولا تؤثر فيها العوامل البيئية التى تؤثر فى المواد الأخرى. وربما كان من الأسباب أيضًا إجلال الأشياء المقدسة مثل سجلات العشور بتسجيلها على مواد أرفع قدرًا، وأيسر تنظيفًا إذا علقت بها الأتربة والشوائب.

وكانت مشكلتنا الكبرى مع الأماكن التى خبئت بها الكنوز أن أسماءها الواردة فى الكتاب المقدس والتى كانت معروفة بها وقت الإخفاء قد تغيرت الآن وربما تكون القرى والمدن المذكورة بالوثيقة قد اختفت وتلاشت، وتكون مواقعها قد أعيد استخدامها وبنيت عليها مدن وقرى أخرى بأسماء جديدة. وحتى الأسماء القديمة أو المحرفة عنها لو تم الاحتفاظ بها بشكل أو بآخر فإنها ربما تطلق على مواقع أخرى قريبة أو بعيدة من الموقع القديم نفسه.

والذين درسوا أسماء الأماكن الواردة فى اللفافات النحاسية يؤكدون أنها ذكرت على النحو الذى وردت به فى أسفار الكتاب المقدس ولا بد من دراسة طبوغرافية فلسطين القديمة دراسة تفصيلية متأنية واعية حتى نتعرف على الأماكن المذكورة فى اللفافات والمخبوءة بها الكنوز. ومما يسر علينا الأمر أن الأماكن التى خبئت بها الكنوز لا تتعدى ثلاث مناطق:

١- مواقع حول البحر الميت (ومنها قمران بطبيعة الحال).

٢- مواقع فى محيط جريشو (جرش).

٣- بيت المقدس.

إلا أنه مما يصعب علينا الأمر بالنسبة للأسماء الواردة فى تلك المناطق هو أن كاتب اللفافات النحاسية استخدم الأسماء البديلة أو المترادفات ربما للتعمية أو لمزيد من السرية. ومن هنا فإنه من الممكن أن يكون هناك فى القرن الأول الميلادى لكل موضع اسم أو أسماء مختلفة عما كان عليه الحال قبل ذلك وأيضًا بعد ذلك على نحو ما قامت به إسرائيل الآن من تغيير الأسماء الفلسطينية العربية إلى أسماء يهودية عبرية والأسماء التى تظهر الآن فى الإنتاج الفكرى المعاصر ربما تكون هى الأسماء المستعارة أو البديلة المترادفة.

ولو أن الدراسات التى تجرى الآن على قدم وساق وصلت إلى تحقيق وتدقيق الأسماء وتحديد مواضعها فإن ذلك سوف يقدم مساعدة قيمة تنير لنا الطريق أمام تاريخ الطائفة التى سكنت قمران وعلاقتها بالجماعات اليهودية الأخرى والغزاة الأجانب. ومن أمثلة تلك المشكلات تحقيق اسم مدينة (سيكاكاه)؛ ذلك أنه طبقًا للقرائن التى وردت فى اللفافات نفسها فإن سيكاكاه فيما يبدو لنا هى خربة قمران نفسها موقع جماعة الإيسنيين.

ومن المؤكد أن هذه اللفافات النحاسية بما فيها من أسماء الأماكن والمناطق سوف تلقى المزيد من الأضواء على طبوغرافية القدس فى القرن الأول الميلادى لأنه فى داخل القدس وحولها دفن الجزء الأكبر من الكنوز كما يمكن لهذه اللفافات أن تساعد فى الحفريات الأثرية فى بيت المقدس والتى بدورها يمكن أن تقدم لنا معلومات تاريخية جديدة حول المدينة: المبانى والحياة والأحداث التى وقعت فى تلك المبانى القديمة.

ويرى بعض الباحثين وقد يكونون محقين فى ذلك أن خمسة وعشرين موضعًا على الأقل من المواضع المذكورة فى هذه اللفافات موجودة فى منطقة المعبد وهى واحدة

من المناطق التى لا خلاف عليها فى طبوغرافية قدس القرن الأول الميلادى. ومع هذا فإن قلة من الناس فقط والذين لهم معرفة وثيقة بساحات المعبد وغرفه وأسمائها الخاصة ووظائفها هم فقط القادرون على التعرف على كثير من المواضع المذكورة فى اللفافات. وربما يستطيع الربابنة بما لديهم من معلومات عن الأماكن والأحداث القديمة أن يساعدوا فى تحقيق المواضع والوظائف الخاصة بالأماكن المختلفة الواردة فى اللفافات، من خلال الأسماء الحقيقية الكامنة خلف الأسماء المستعارة المذكورة فى اللفافات.

وإذا تركنا مشكلة الأسماء والمواضع والمناطق جانبًا فسوف يصدمنا الباحثون الثقاة بقضية أخرى هى بالضرورة هامة وهى قضية من هم أصحاب هذه الكنوز، من هم الذين كتبوا هذه اللفافات ومن هم هؤلاء الذين خبأوها؟

يرى فريق من الباحثين أن طائفة الزيلوت هم أصحاب هذه الكنوز وهم الذين حفروا الرقائق النحاسية وهم الذين خبأوا تلك الكنوز وبذلك ينتفى هذا العمل عن طائفة الإيسنيين الذين يعتقد أنهم أصحاب مجتمع قمران وكهوف قمران وذلك على نحو ما سوف أعالجه فى فصل مستقل. وهؤلاء يرون أن الزيلوت كانوا هم المحاربون الحقيقيون وأنهم هم الذين أعدوا الحصر الخاص بالكنوز المخبأة أو التى تم إخفاؤها فى ربيع ٦٨م. ويرون بحسهم العلمى أن هذه الكنوز كانت من أملاك ومقتنيات المعبد ولما شعر الزيلوت المحاربون بأن الهزيمة قد باتت وشيكة وأن الرومان سوف يطبقون على المعبد تم سحب هذه الكنوز وإخفاؤها. ويضيف هؤلاء الباحثون أن جانبًا من هذه الكنوز يرجع إيضًا إلى الغنائم التى كان الزيلوت يغنمونها فى حملاتهم وغاراتهم على المستوطنات الأخرى فى صحراء يهوذا.

وما تزال الأسئلة الساخنة حول اللفافات النحاسية مفتوحة: من خبأ الكنوز؟، من أين أتت هذه الكنوز؟ ما هى الأماكن التى خبئت فيها تلك الكنوز؟ هل هذه الكنوز حقيقة ملموسة أم مجرد تمويه؟ وهل تمت بالفعل تخبئتها وإخفاؤها؟ أليس من الجائز أن يكون أحد قد عثر عليها واستخرجها طوال الفترة من ٦٨م حتى الآن؟ ولماذا لا تكون ثورة اليهود الثانية ضد الرومان قد استولت عليها؟ هذه

الأسئلة وغيرها تنتظر الإجابة عليها بعد الدراسات المستفيضة للفافات والحفريات الأثرية واسعة النطاق؛ فما زالت قراءة اللفافات متعثرة حيث الكتابة تعوزها الحروف المتحركة واللهجة التى كتبت بها تستعصى على الفهم الكامل والعمل فريد من نوعه وليس له ما يقاس عليه. وربما كانت الصيغة الشفرية التى كتبت بها الوثيقة والحساسية المفرطة من جانب كاتب الوثيقة لمحتويات الوثيقة من بين المشكلات.

وقد نشرت أولى محتويات الوثيقة فى الأول من يونيه ١٩٥٦ باللغة الإنجليزية. وقد سبق أن نقلت فى موضع سابق من هذا البحث نماذج لما نشر من محتويات لمجرد التمثيل. وقد أثار نشر نص الوثيقة الكثير من الجدل حول وجود هذه الكنوز أصلا. فقد قال البعض أن الحجم الضخم للكنوز وخاصة بالنسبة لمجتمع ذلك الزمان وهو مجتمع دينى أصلاً وغموض الأماكن التى خبئت فيها يخلع على الوثيقة صفة الفولكلورية التى ليست لها سوى أهمية محدودة. ويذهب هذا البعض إلى القول بأن حفر قائمة بتلك الكنوز على شرائح معدنية من الصعب برشمتها لم تجر به العادة من قبل وهو أمر غير طبيعى؛ كما قالوا إن خط الحفار لا يدل على مهارة.

وقال فريق آخر فى نفس هذا الاتجاه أن هناك قصصا وروايات حول إخفاء كنوز المعبد خلال الحرب الأولى بين اليهود والرومان ٦٦ – ٧٠م تم تسجيلها وترجمتها. وأكدوا على أنه من غير المقبول استخدام لفافة من النحاس النقى لأنه ليس الاستخدام المناسب لكتابة مثل هذه القصص الخرافية. وكان يمكن استخدام مواد أخرى غير عادية وأكثر تحملا لتسجيل أسماء الأماكن التى خبئت فيها الكنوز.

ومن بين ما ذكر حول حقيقة هذه الكنوز أن هذه اللفافات هى فعلا قوائم بكنوز الطائفة، خبأها أحد أعضائها وربما كان أمين المال قبل هروبهم الكبير من الرومان وتم تسجيلها حفرًا على رقيقة نحاسية على أمل استردادها بعد ذلك بعد العودة، وربما كانت الرقيقة النحاسية قد أعدت لغرض أخر وتوفر شخص ما على حفر النص الحالى عليها عندما أطبق الرومان على القدس على أمل تضليل هؤلاء الرومان إذا عثروا على اللفافات.

وأيًا كان الأمر فإن لهذه اللفافات النحاسية بعض أهميات لا تجحد نأتى على بعضها:

- هذه هى أولى وثائق قديمة تصل إلينا وتعطى مفاتيح لكنوز مخبوءة.
- وهذه هى أولى نصوص مستفيضة تصل إلينا بعبرية المشناة.
- ومن المؤكد أنها بعد فض مغاليقها سوف تزيد من معرفتنا ومعلوماتنا حول طبوغرافية فلسطين

* * *

opeikandl.com